

خطاب صاحب الجلالة

بمناسبة الذكرى الأربعينية لوفاة جلالة الملك محمد الخامس

قدس الله روحه

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله

«وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون».

في هذا الموقف الخاشع الرهيب الذي ترفرف عليه روح إمامنا الراحل العظيم وقائدنا المفدى الهادي الى الصراط المستقيم، في هذا الموقف الجليل، وفي هذه الذكرى الأليمة، ذكرى المصاب الجسيم بفقد أب الأمة المغربية جمعاء، لا يسعني كإبن بار وثمرة من ثمار محمد الخامس، الا ان اتوجه بسمعي وحديثي وقلبي الى محمد الخامس، اتوجه باسمي واسمكم الى والدي ووالدكم، الى زعيمي الى قائدي وقائدكم، إلى الشعلة التي أنارت لنا الطريق، إلى روح محمد الخامس رضي الله عنه وطيب ثراه.

أبتاه:

منذ أربعين يوما مضت وافاك الأجل المحتوم ونودي عليك من الملأ الأعلى فلبيت النداء مبتسما لدعوة السماء ابتسام الذين نالوا أرفع الدرجات فودعتنا ولكن بقلب مطمئن ونفس راضية وفارقتنا على نداء: — ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي — ورفعت على أجنحة العمل الصالح الى المقام الأسمى الرابح، مقام العزة والرضوان واقتبلت بالرفيق الأعلى اقتبال العارفين من طرف الملائكة المقربين — سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم، دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين.

فهنيئا لك بجوار ربك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين.

هنيئا لك ابتاه بتحقيق الرؤيا التي بشرك بها الصديق الذي أصبحت له بفضل الله نعم الرفيق، ألست قد صبرت وصابرت وجاهدت ورابطت وعاهدت فوفيت وقلت فصدقت — من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم.

أيها الراحل العظيم:

فارقتنا منذ أربعين يوما فقامت قيامتنا لهول الفاجعة وذهلنا لعظم الواقعة؛ فكم من حامل وضعت قبل الأوان حملها وكم من مواطن فقد وعيه غماً وكمداً وكم من روح فاضت حسرة ونكداً — فلم يشهد المغرب بل العالم كله يوما كيوم فراقك، كانت الأصوات تتعالى كالرعود القواصف وكانت شهقات البكاء تهدر كهدير

البراكين، لقد فداك الشعب حيا وحاول ان يفديك عندما التحقت بالرفيق الأعلى. ولم يسجل التاريخ ان خليفة نعي كما نعيت ولم يتحدث عن ملك أو قائد ندب كما ندبت؛ وانا ابنك ووارث سرك والمتقرب بك الى ربك والمتبرك بتراب نعلك صعقت أعظم صاعقة وتحيرت بين عاطفة عمر الفاروق الشديد الحازم وبين اطمئنان أبي بكر الصديق المؤمن الصابر وقد حدا بي الاشفاق على هذا الشعب العزيز وقد برحت به البلوى وعظم عنده بفقدك الخطب ونضب منه أمام هول الفاجعة معين الصبر ان أصيح في وجه الجميع بمثل مقالة عمر: من زعم ان محمداً قد مات ولكن اطمئنانا كاطمئنان أبي بكر الصديق غمر قلبي بعد أن تذكرت وصاياك الأبوية الكريمة فانزل الله بها السكينة علي ورددت مارده جدك الكريم يوم فقد فلذة كبده ابراهيم: العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول الا ما يرضي الرب وانا على فراقك لمحزونون.

ان تلك الطمأنينة التي تغمر قلوب المؤمنين كلما حم القضاء ودعا داعي السماء هي التي الهمت ابا بكر الصديق ان يثبت قلوب المسلمين الهالعين يوم فقد الرسول.

أبتاه:

وبنفس هذه الطمأنينة استعادت ذاكرتي وصاياك الكريمة التي كنت تزودني بها وفي طليعتها خطابك الذي وجهته لي والذي ضم جوامع كلمك، ذلك الخطاب الذي سيبقى لي نبراسا يضيء لي السبيل، الم تتوجه في ذلك الخطاب بهذا القول الحكيم:

يابني، لقد اخترت لك من الأسماء الحسن لأربط بين حاضر البلاد وماضيها القريب والبعيد وليكون لك في جدك المولى الحسن خير اسوة واعظم قدوة فلم تكد تطل على السادسة من عمرك حتى قدمتك للمعلم ليلقنك آيات القرآن وليغرس في قلبك الطاهر الفتي حب الدين وعزة العروبة والاسلام — ولما ترعرعت يا بني اخترت بقاءك تحت سماء المغرب ليتم تكوينك الثقافي في بيئة مغربية فبنيت لك مدرسة خارج القصر ليتربى فيك الاعتماد على النفس فحرمتك من مجاملة الخادمات وحنان المربيات حتى تزدهر شخصيتك وتصبح عصاميا بارزا قبل أن تكون أميرا؛ ثم أحطتك برفقاء من مختلف طبقات الشعب لأني كنت أريد ان أعدك إعداداً منتزعا من بيئة شعبك فكنت أحرص ان يعاملك رفقاؤك كباقي اخوانك التلاميذ تقارعهم الحجة بالحجة فلا يخضعون لك الا بمقدار ما تبديه من تفوق ومعرفة؛ وهذا ما كنت أرجوه من المدرسة المولوية: انعزال عن القصر واعتماد على النفس وخوض معركة الحياة، لقد سهرت يا بني على بناء المدرسة وبرامج التعليم وكنت المفتش فيها والمراقب وكنت أفاجئكم في الدرس وأحيانا بالليل فكنت تقوم وتسرع الي باسماً مبتهجاً كما اني كنت أراقب دفاتر واجباتك فاجازيك اذا تفوقت واعاقبك اذا قصرت ولكن والحمد لله قلما كنت متأخرا.

يابني، لقد كنت صارما مع الأساتذة وكنت ألح عليهم أن يعودوك الطاعة والامتثال وان لا يتساهلوا معك وان لا يحترموا فيك الا القيم الانسانية المجردة وما أفاء الله عليك من ذكاء وعلم وأدب وعمل، وكان غرضي ان تتعلم الطاعة لتعرف في يوم من الأيام كيف تملي أوامرك لأن من تلقى الطاعة جيدا املاها جيدا.

يا بني ان والدك يؤمن بان قيادة الأمم وتسيير الدول فن قائم بذاته فلا يكفي فيه التعليم والتربية وحدهما بل لابد من تكوين عملي يومي يخرج مباشرة من القلب فيصل الى القلب.

فاعددتك مواطنا مغربيا قبل اعدادك أميرا فقد كنت أقص عليك تاريخ بلادك ومواقف اجدادك كما كنت القنك معنى المواطنة حتى تؤدي ولاية العهد التي انطتها بك، واحرص على أن تؤمن بالواجب الوطني والصالح

العام، وكنت ادفعك لتتعمق في فهم معنى قيم الشعب لتخدمه الخدمة الصادقة.

ان مهمتك خطيرة فيجب عليك ان تزداد من العلم والمعرفة، يجب ان تدرس الأفراد وان تعرف الشخصيات : يابني أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور.

ألم توجهني بتوجيهك السديد مخاطبا إياي : ها قد افاء الله عليك من عوارف انعامه وأضفى عليك سوابغ قبوله واكرامه والف القلوب على حبك وأطلق الألسنة بمدحك والثناء عليك ـ فاحمد الله الذي شرح للايمان صدرك ورفع بالأخلاق قدرك ونشر بالتضحية في الخافقين ذكرك.

واياك ان تحيد عن صراط الاسلام القويم أو تتبع غير سبيل المؤمنين فإنه لا عدة في الشدائد كالايمان ولا حلية في المحافل كالتقوى، واعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة وتقرب منه بالاعمال الصالحة ذراعا يتقرب منك توفيقه باعا واجعل القرآن المصباح الذي تستضيء به اذا ادلهمت الدياجي واشتبهت عليك السبل وليكن لك في رسول الله وصالحي الخلفاء اسوة حسنة، اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. أوصيك بالمغرب بلدك الكريم ووطنك العظيم، فكن يا ولدي خير خلف لخير سلف وليكن عملك لوطنك ومحافظتك على استقلاله ووحدته أمرا يقتضيه منك شرف المسؤولية وتفرضه عليك تقاليد الأسرة في آن واحد. وتذكر ان جدك الحسن الأول كان عرشه على ظهر فرسه لكثرة تنقله في البلاد ومشيه في مناكبها متفقدا للرعية سامعا للشكاة مستأصلا لجراثيم البغي والفساد.

أبتاه:

من هذه الوصايا الكريمة أيها الوالد الكريم استمددت العون واستلهمت الرشد واستعدت العزم؛ ويشهد الله أني لأجلها قبلت الأمانة وتحملت المسؤولية على غير تطلع مني ولا انتظار، ان دقيقة بجانبك وانت حي كانت عندي اسمى من كل عرش وأعظم من كل ملك، وان نفحة من نفحات رضاك التي كنت انعم بها كانت تكفي لأشعر أني أكثر من ملك متوج ولكن اذا كانت البنوة تفرض طاعة الآباء بتنفيذ أوامرهم وهم أحياء فهي كذلك تفرض تنفيذ وصاياهم وهم أموات.

فلقد تجندت بسرعة وتحملت بشجاعة الصدمة واعتمدت على الله مستمدا العون منه شاعرا بان رضاك الدائم يحفني وان روحك الكريمة ترعاني.

أيها الوالد الكريم:

ان مما زاد في سكينة قلبي والهمني الجميل من الصبر شعوري بانك عند مولاك في مقعد صدق في النعيم المقيم وان روحك الطاهرة بفضل الله سعيدة، وان العناية الالاهية صحبتك ميتا كما صحبتك حيا وان موتتك لم تكن الا موتة أبرار وتبديل قرار زائف بنعم القرار وإيثارا لدار البقاء على هذه الدار، ولقد وجدت حسن العزاء وجميل الصبر في تأثر جميع الشعوب والدول لفقدك وفي عزاء جميع قادة العالم في مصابك تساوى في ذلك العرب والعجم والمسلمون واليهود والنصارى فلقد بكاك بصدق الشرق والغرب، وفقد فيك العرب قائدا موفقا حكيما والمسلمون ملكا صالحا وأبا رحيما وفقدت افريقيا في شخصك محررا مثاليا مقداما متزنا صبورا.

انك لم تكن ملكا كالملوك، انك لم تكن تحمي العرش بالشعب وتستغل المواطنين والوطن من أجل الولاية والسلطان بل كنت الشعب بعرشك وتناضل عن الوطن بنفسك وكنت لا تسأل الراحة والمتعة لشخصك ولا تسعى في المصالح الرخيصة لافلاذ كبدك والمقربين من أسرتك، وانما كان شعارك الدائم هو شعار جدك يوم الموقف الأعظم :

اللهم اني لاأسألك نفسي ولا فاطمة ابنتي وانما أسألك أمتي أمتي أمتي.

فلئن امتاز طغاة الحكام بتجنيد المستضعفين لحماية مصالحهم وتحقيق مطامعهم فلقد امتزت انت وسموت انت بان قدمت عرشك واسرتك ونفسك للدفاع عن هذا الوطن ــ فكان الشعب يتسابق لفدائك وكنت تسابقه للدفاع عن حوزته وحماية مكاسبه ؛ وبهذا التسابق للفداء والتضحية حصل ذلك التجاوب العظيم بينك وبين هذا الشعب فتحققت المعجزات التي أثارت اعجاب العالم وتعددت المنجزات التي عرف بها عهدك العظيم وظلت مقرونة باسمك الكريم.

أبتاه:

ان عزاءنا الوحيد ايماننا بانك لست غائبا عنا فأنت حاضر في كل مؤسسة ومنظمة يقترن اسمك بملحمة الحرية والاستقلال وتاريخ الجهاد والنضال، انت حي حاضر في المساجد التي شيدتها وفي المدارس التي دشنتها وفي الجامعات التي أسستها وفي المؤسسات التمثيلية التي كونتها ؛ انت حاضر في قلوب اليتامى في المبرات وحاضر في قلوب المتعلمين في المدارس والجامعات بل انك حاضر في ضمائر المغاربة أجمعين انت حاضر في قلوب المتقين وفي عزائم المقاومين وفي ثورة الثائرين وتضحية المضحين ؛ حاضر في نهضة الفن والفنانين إذ أنت الذي أيقظ الضمائر وأحياها وأنار البصائر وأرشدها وأثار العزائم وشحذها ؛ فلقد كنت القائد المغامر السائر في الطليعة، والمجاهد المثالي الذي أعطى في الجهاد الأمثلة الرفيعة فما الوعي الوطني الا ثمرة من ثمار غرسك فلقد خلقته وتعهدته وربيته وغذيته. كنت توجه النداء تلو النداء كلما انحرف المواطنون عن الجادة أو كاد يصيب وعيهم دخل أو عزائمهم وهن. الم تحذر في خطاب العرش قائلا : فحذار من مثبطات الهمم ومحبطات الأعمال ورجوعا ايها الشعب الى التاريخ القريب لتدرك الموبقات التي كانت سببا في ضياع حريتنا منذ نصف قرن ــ فانه ما عصف باستقلالنا وما أنجح المكائد الأجنبية الا الافتراق والاختلاف والتخاذل والتواكل والتردد والتفاخر بالمدن والقبائل والشح بالنفس والمال ووقوف المواقف السلبية وتقديم المصالح الخاصة على المصالح العامة ــ ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فعلينا ان نتمسك باخلاقنا الدينية والوطنية، وزدت تقول : وان نستديم نعم الله بشكرها ونحذر زوالها بالجحود فينطبق علينا المثل الذي ضربه الله للجاحدين (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون).

أبتاه:

انك بهذه الوصايا الحكيمة وبمنجزاتك العديدة ــ وبروحك الطاهرة المرفرفة فوقنا تجعلنا نؤمن بأنك مازلت بين ظهرانينا تراقبنا وتوجهنا وتحثنا على مواصلة السير ومداومة العمل ومتابعة الكفاح لتنفيذ رسالتك والاقتداء بسيرتك والاهتداء بهديك الذي هو هدي الخلفاء الراشدين من قبلك، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.

أيها المكافح العظيم:

لقد قضيت صباك تحت تأثير العهد الأول للحماية فكنت وأنت الطفل الصغير تسمع الآهات على الاستقلال الضائع والمجد الذاهب والحرية السليبة وكنت تتابع أخبار المقاومة المغربية المسلحة في الجبال والصحاري وكنت تشاهد ما عليه الأمة المغربية من التشبث بالخرافات والتعلق بالأساطير والخروج عن طريق الجادة والمحجة البيضاء فكنت تتألم وكنت تحزن ــ ولم تكد تعدو الحلم حتى تحملت الأمانة فشهرتها حربا على الخرافات والطرق الضالة وقضيت على المحاولات العنصرية التي كان يريدها الاستعمار لتفريق كلمة الأمة واستغلالها لأنك كنت تؤمن بانه لن يستقيم أمر هذه الأمة الا بعقيدة مؤمنة سلفية طاهرة نقية وانه لا تتم أية نهضة صحيحة الا بفكر وطني متجرد يعمل للصالح العام لا يفرق بين أسود وأبيض وعربي وعجمي (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم). ولقد اتت اعمالك الطيبة نتائجها فتم القضاء على الشعوذة والتدجيل واتجهت الأفكار للتعليم والاصلاح فنظمت الجامعات العتيقة وجددت مدارسها واحييت خزائنها وعمرتها وفتحت المدارس وكونت الكليات والمعاهد ودفعت هذا البلد الأمين في طريق الرقي والمدنية ــ محافظا على العلوم الدينية والتقاليد الاسلامية. ولقد آمنت يا ابتاه بأنه لا يمكن ان يصلح آخر هاته الأمة الا بما صلح به أولها، فأخرجت المرأة من عهد الجهل الى عهد النور والعلم واعطيت بالأميرات فلذات كبدك أروع الأمثلة فتسابق المواطنون لتعليم بناتهم ولم تبق الفتاة المغربية حليا يشترى أو زينة تدخر بل أصبحت تفاخر بالشهادات والتسابق الى المعاهد والكليات فلقد نجحت النهضة النسوية وأحرزت المرأة المغربية على كامل حقوقها فلم ترحل الى الرفيق الأعلى حتى عادت المرأة الى ما وصفت به في القرآن. ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف. وهكذا أصبحت المرأة صنوا للرجل فهي تلميذة بجانب التلاميذ طالبة مع الطلبة معلمة مع المعلمين تمثل أمتها في جميع المحافل في الخارج ــ وتقوم بجانب الرجل بجميع المهام بالداخل فلم يبق ميدان من ميادين الحياة الا ولجته ونالت حقوقها الاجتماعية وتوج عصرك الزاهر بان أحرزت المرأة على أعظم ما وصلت إليه في أي بلد متمدن الا وهو المشاركة في الانتخاب والظفر بحق التصويت. لقد كانت المرأة موؤودة فأحييتها وكانت أسيرة الجهل والتقاليد فحررتها، وكنت الملك الصالح المسلم الأول الذي أعاد الأمر إلى نصابه ورد شأن المرأة لطريق صوابه، فلئن امتاز القرن العشرون في المغرب وغيره في بقية العالم بعدة معجزات فان من أعظم معجزاته في بلادنا الانقلاب السريع العظيم الذي حصل في حياة المرأة المغربية بفضل توجيهك، ونضالك، لقد كان سر نجاحك انك لم تكن ملكا قوالا بل كنت ملكا فعالا فدعوت لتعليم الفتاة وكنت أول البادئين وناديت بتحريرها وكنت أول المحررين؛ لقد كنت تملي الأوامر بالمثال فذلك سر نجاحك في كل حال.

أبتاه :

لقد كانت خطتك في الاصلاح مطبوعة بالحكمة، فقد كنت تريد مدنية في ظل الدين ودينا صحيحا مطهرا من دجل الدجالين والمشعوذين فتحملت في سبيل ذلك المحن والمصائب وثار عليك الدجالون من أعوان الاستعمار وتألبوا عليك باسم الدين والدين منهم براء وحاولوا تأليب البسطاء والاغرار عليك، ولكن الله كان معك وكان وليك وراعيك فثبتك وأيدك ونصرك. وكم حاول الاستعمار ان يغريك بجميع أنواع المغريات فكنت تردد مع جدك شعاره الدائم في فترة كفاحه العصيب : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري.



أبتاه :

لقد قضيت سبعة عشر عاما فوق العرش تحاول بكل ما في وسعك أن تأخذ لهذه الأمة ما يمكن أخذه من المستعمر الغاصب، وكنت تقلب الرأي وتعد الخطط للتخلص من سيطرته وتهيء الاطارات بالداخل والخارج في انتظار يوم الخلاص لكي يحسن المغرب الجديد مواجهة مسؤولياته حتى إذا أشرفت الحرب الأخيرة على نهايتها ووجدت الفرصة مواتية للصدع بما قدرت اعلنتها في شجاعة المقاوم الباسل والبطل الصنديد المغوار فحصرت مطالبك في الحرية والاستقلال لوطنك وأفهمت العابثين بحقوق أمتك أنك لن تحيد عن هذا المطلب ولن تساوم أو تهاود فيه؛ وهكذا قدت منذ سنة **1944** امتك في المطالبة بالاستقلال فاستقبلت في شهر يناير التاريخي جماهير الوفود، وكنت الزعيم المبرز في ذلك اليوم المشهود.

ومنذ ذلك اليوم وأنت تشجع وتنظم وتعد العدة في السر والعلانية مواجها لجميع الحركات ثابتا في الأزمات فكم من عزائم خارت فقويتها وكم من مؤامرات حيكت فأحبطتها ولم تكد تصل سنة **1947** حتى ربطت بزيارتك التاريخية بين أجزاء المملكة المغربية فحطمت الحدود المصطنعة وربطت الحاضر بالماضي فأكدت ارتباط هذا الجناح من وطن العروبة بباقي أطرافه ولفت بذلك الخطاب التاريخي أنظار العالم إلى أن المغرب الذي لعب عبر التاريخ أروع الأدوار في بناء صرح المدنية متطلع الى أن يأخذ من جديد مقامه في المحافل الدولية ويساهم مرة أخرى في عظمة وازدهار عالم ما بعد الحرب؛ ومنذ ذلك العهد والاستعمار يوالي مؤامراته عليك ويجند الصنائع والعملاء للنيل منك.

ألب عليك جرائده في الخارج وحرك أذنابه في الداخل وحاول أن يسد عليك الآفاق وان يؤثر عليك بالدعايات ويشهد الله أنك كنت ثابتاً صابراً مكافحاً مثابراً متكلاً على ربك مستمدا العون من سيرة جدك، كان إيمانك بالله هو ملاذك عند الملمات وكان ربك معينك وموفقك عند الأزمات. وأشهد يا والدي انه عندما كانت تقسو الظروف والأوقات كان ايمانك النور الذي يسطع فيبدد الظلمات والفجر الصادق الذي يقضي على ليل الشبهات وبينما كان الاستعمار واذنابه ينتقلون من خيبة الى خيبة ومن مؤامرة الى مؤامرة كان الله يرد كيدهم في نحورهم وتدور الدائرة عليهم أما أنت فكنت تنتقل من نصر إلى نصر ومن فوز إلى فوز ومن مجد إلى مجد فما ودعك ربك وما قلى ولا عنك في يوم تخلى شعارك الدائم: واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، ان لاتنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا، فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا، ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

أيها الوالد الحبيب :

في هذا الموقف الرهيب أتذكر فترة تاريخية عشتها بجانبك حينما تكالب علينا الاستعمار مهددا لجلالتك متحديا لمهابتك يساومنا على أن نرضى بالدنية في وطننا ويراودنا على أن نرهن مصير الأمة في عبودية مستمرة مستعملا لذلك أنواع الوعيد ممتطيا لذلك ضروب التهديد ومع ذلك لم يهن لنا عزم ولا ضعفت لنا قناة، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا. انك لاتزال أمامي يوم أن طوق القصر وأصبح محاصرا

ساكنا كالقبر ومازلت أتذكر وقد نظرت إليك نظرة اشفاق؛ وأراك وأنت تبتسم مرددا: لا تحزن إن الله معنا. وهجم الظالمون على القصر وأخرجنا من أهلنا وديارنا لا نعلم أين المصير وحلقت بنا الطائرة وودعنا أرض وسماء الوطن الحبيب لا ندري ما ينتظرنا.

ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة الخطيرة التي عشتها وإياك بين السماء والأرض داخل الطائرة العسكرية تلك الطائرة التي كان منظرها وحده لا يوحي بثقة ولا باطمئنان؛ وعندما علت في طبقات الجو لم يستطع قلبك أن يتحمل ضغط الأجواء ومع ذلك تجلدت وقبلت المخاطرة في سبيل أمتك، وما هي إلا دقائق حتى أخذ قلبك يرجف كالطائر الجريح داخل القفص فأسرعت إلى الربابين أطلب منهم أن يسقوك جرعة ماء فامتنعوا فأيقنت بالكارثة وفاضت دموعي تترى وضممتك إلى صدري وكان عزائي الوحيد أن نموت متصلين متعانقين. ولقد آلمك أن تراني باكيا فأخذت تطمئنني وتقرأ آيات الصبر: إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب، ان إيمانك بالله لم يضعف قط ولم يصبك قنوط في المنفى لأنك كنت واثقا بمن يعلم السر واخفى؛ لقد كنت تراها أشبه بالهجرة من مكة إلى المدينة وكان لك في رسول الله الذي هاجر وانتصر إسوة حسنة، لقد كنا ونحن في المنفى السحيق نتابع بطولة الشعب الذي جند نفسه لفدائك وكنت لا تشك لحظة في عودتك إلى أمتك ووطنك. وكنا نختلي الساعات الطوال لنضع التصميمات لمغرب الغد الحر المستقل؛ ولم تمض إلا شهور حتى صدق الله وعده ونصر عبده وهزم المستعمرين والعملاء وحده وكانت عودتك الظافرة نكسة الشر التي لم تقم له بعدها قائمة «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا»..

أيها المقاوم الأول:

بثباتك وصبرك وبتضحياتك بسلطانك وعرشك لقنت للمواطنين دروس التضحية والفداء ورسمت لهم طريق الحرية والسعادة والرخاء، فتسابقوا للمقاومة والتضحية، وتنافسوا في بذل المهج السنية وتساقطوا شهداء في الميدان واسترخصوا كل غال في سبيل الأوطان؛ وبين عشية وضحاها عدت لهاته الأمة وأنت رمز فداها، بل أنت مبتدأ التضحية ومنتهاها، حاملا في يمناك اليمن والاستقلال وفي يسراك اليسر والاقبال.

أيها المنظم القدير:

لم تسترح لحظة بعد تلك العودة وانما رجعت من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر وابتدأت الكفاح لتوطيد دعائم الدولة وتشييد صرحها ومواجهة مهام الاستقلال وضبطها فأقمت الأمر على أساس متين وأعليت شأن الدنيا والدين فهيأت للأمة قوانينها وإطاراتها وكونت لها شرطتها وجيشها وأقمت لها معالم الثقافة وأرسيتها وأقمت مؤسساتها التمثيلية وأعليتها وبوأتها المقام الأسمى في المحافل الدولية وأسهمت بجهودك المباركة في حظيرة جامعة الدول العربية ووضعت المغرب في المكان المرموق في الأمم المتحدة وأصبحت رسول الحرية والسلام تدعو لهما في الخافقين وتبشر بهما في المشرقين ولم تمض الا شهور على هذا العمل الدائب حتى أصبحت بلادنا قبلة الوافدين ومحط اهتمام الشرق والغرب تقصدها الوفود من كل جانب ويعترف بفضلها الأقارب والأجانب، تعقد فيها المؤتمرات ويسجل لها التاريخ أروع الصفحات، فلم تغادرنا حتى مهدت لنا كل سبيل، وتركت لنا الخطة والدليل، خلفتنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها الا هالك ــ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني.

وقد أراد الله ان لا يصطفيك لجواره الا بعد أن ختم لك بالحج المبرور وأن يمن عليك بفضل الوقوف في ا لبقاع المقدسة وكان في حجك ذاك أعظم من مغزى؛ ذلك أنك وأنت في معترك الحياة العملية لا تنسى أن الى ربك الرجعى، وفي جهادك لتبوئة أمتك المقام الأسمى لا تغفل عن أن ما في الآخرة خير وأبقى. وتم رضى الله عنك حينما اختارك لجواره في شهر الغفران الذي أنزل فيه القرآن وهكذا رضي الله عنك حيا وميتا، ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم.

أبتاه :

ان الذي يبرد حرارة اللوعة ويطفيء نار الفرقة إيماننا أنك حبيب الله؛ فلقد أجمعت الأمة الاسلامية على حبك وتهجد المسلمون في الحرمين يوم وفاتك داعين لك بهما متوسلين لك في المقامين. وهكذا عمل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قاصيها ودانيها ومحبة الخلق من محبة الحق، ان الله اذا أحب عبدا نادى ملك في أهل الأرض ان الله يحب فلانا فأحبوه، فلقد أحبك مولاك واجتباك وجعلك المجدد المصلح في هذا القرن واصطفاك مصداقا للحديث :

ان الله يبعث على رأس كل سنة مجددا؛ لهذا كانت سيرتك كسيرة جميع المصلحين وكانت شمائلك كشمائل أصحاب الرسالة والمجددين. قضيت الشطر الأول من حياتك في المشاهدة والملاحظة التعبدية فاطلعت على الحقائق والأسرار ولمست المصائب والأضرار؛ ثم كانت المرحلة الثانية حيث تحملت الأمانة وصعدت بالأمر وجابهت الظلم والظالمين فتحملت المضايقة والتعذيب بإيمان الصديقين وعزيمة المؤمنين الموقنين؛ ثم جاءت المرحلة الثالثة النهائية في حياة كل ذي رسالة وهي أقصر المراحل فجاء الفتح والنصر وتحققت الآمال ونالت الأمة الحرية والاستقلال — إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا.

ومما زاد يقيننا برضى مولاك عنك ومحبته لك، أنه عند ما كنت داخلا لقاعة العملية، كانت راية الاستعمار تنزل من فوق البنايات العسكرية، وكانت القيادة العسكرية الأجنبية بالمغرب تنحل وتسلمت الدولة المغربية ثكناتها وقيادتها؛ وكان آخر ما سمعته هي هاته البشرى، وكان آخر ما أغمضت عليه جفنيك هذا المنظر السعيد، وكانت هذه الحادثة آخر كرامة ظهرت لك في حياتك. فمحمد الخامس الذي حاول الاستعمار أن ينزله عن عرشه يوم 26 فبراير سنة 1951 لم يفارق هذه الديار بعد ذلك بعشر سنوات حتى أنزل الاستعمار من صياصيه، وأجلاه عن المغرب، فكان فاتحة لجلائه عن إفريقيا والعالم المضطهد كله، وكانت المدة الفاصلة بين المحاولة الاستعمارية ويوم الجلاء عشر سنوات كاملة كالمدة الفاصلة بين الهجرة والفتح.

أبتاه :

هكذا حقق الله آمالك واستجاب لك كل دعواتك؛ لقد كنت تدعوه سبحانه ان يأخذك إليه طاهرا نقيا نظيفا محبوبا حتى تبقى جذوة حبك متقدة في كل قلب ولوعة فراقك متأججة في كل صدر؛ ولقد كان لك ما أردت، فلقد غادرتنا عزيزا محبوبا نقيا معظما، واحترقت القلوب لفراقك، وكل هذا يدل على أنك لست ملكا كالملوك، ولكنك مجدد وصاحب رسالة، وهبك الله ما أردته حيا وحقق رغبتك عند موتك، كما حقق الله لك جميع الرغبات في حياتك.



أبتاه :

لقد ودعتنا وما يشغلك عن الأمة شاغل، لقد كنت تناجيني بأنك تطمح للمزيد من تحسين أحوال العامل والفلاح، ولقد كنت متألما للتخلف الاقتصادي والاجتماعي مصمما العزم على أن تبذل في سبيل القضاء عليه جميع الجهود والمساعي وكنت تثور كلما طرق سمعك أخبار عن المسؤولين الذين تأتمنهم على الشعب فيستخفون بالأمانة، كنت تريد أن توفر لشعبك المزيد من الحكم النظيف والعدل النزيه، وكنت تسعى جاهدا لرفع مستواه الاجتماعي؛ لم تذخر في ذلك جهدا غير قانع بما حققته ولا راض كل الرضى عما أنجزته في تطلع دائم الى الكمال ورغبة صادقة في أن لا يشرق فجر كل يوم الا على هدف تحققه أو مطلب ترضيه أو مظلمة ترفعها؛ ثم فارقتني على غرة يا أبتاه تاركاً لي العبء الذي تحملته مؤتمنا إياي على الأمانة التي قلدتها؛ فلقد قلت لي يا والدي في خطاب ولاية العهد : وكما تقتضي ولايتك لعهدي أن تخلفني في الأمة تقتضي منك أن تخلفني في أسرتي، وإن لهذه الأسرة عليك من الحقوق مثل الذي للأمة عليك، فكن أمينا على مجدها وغيورا على شرفها، حفيظا لسؤددها وعزها وصل رحمها وحقق أمانيها ولب في دائرة المعروف رغائبها ومطالبها، واعمل على أن تكون مثلا أعلى لأمتك علما ونبلا واستقامة وفضلا وأوصيك على الخصوص بأسرتك القريبة وبطانتك الوشيجة من إخوان وأخوات وأمهات.

أبتاه :

لقد فارقتني وخلفت في عنقي أمانتين : القيام بواجب الأسرة الكبيرة والأسرة الصغيرة، انها مهمة خطيرة، انها مسؤولية عظمى مسؤولية القيام بالواجب نحو اثنى عشر مليونا من المواطنين الذين هم جميعا أبناؤك؛ انهم يتامى فقدوا أباهم فجعلتني الأب الثاني لهم والقائم مقامك في شؤونهم. إنها مهمة خطيرة ولكن اتباعي لوصاياك والسير في سبيلك، وحضور روحك سيمدني بالقوة والمصابرة؛ وعندي اليقين أن اقتباسي هدايتك سينير لي السبيل وأنت بعيد عني بجسمك كما كان ينير لي السبيل وأنا منك قريب. وسأجد في تبادل الاتصال الروحي والتجاوب بيني وبينك، حلا لكل مشكلة ومخرجا من كل مأزق، فلقد صاحبتك ورافقتك، وآمنت أن العناية الالهية لم تفارقك قط، وعندي الأمل في الله قوي انها ستصاحب ولي عهدك من بعدك والقائم بأمرك حتى يكون خير خلف كما أردت لخير سلف.

إن هذه الأمانة امتحان عسير؛ ولقد تعودت منك أن تلقاني كلما نجحت في كل امتحان بابتسامتك الأبوية الطاهرة الحنون؛ وكل أملي في الله سبحانه وتعالى أن أنجح في هذا الامتحان حتى اذا نزل القضاء والتقينا برحمة الله في دار الخلد والرضوان فزت منك بتلك الابتسامة مهنئا لي بالنجاح في الامتحان الأكبر.

إنني اجتهدت وثابرت دائما لأحظى بابتسامة الرضا إثر كل امتحان، وسأبذل أعظم الجهود وأتحمل كل المشاق حتى أكون اهلا لتلك الابتسامة الخالدة في فراديس الجنان يوم ينعم الله علينا باللقيا والرضوان.

أبتاه:

ها أنا أمام قبرك الطاهر وتحت نورك الباهر أعاهد الله وأعاهدك وأعاهد الشعب انني سأسير على سنتك وسأقتدي بسيرتك؛ سأسهر بعين لا تنام حتى أحقق لشعبي العزيز ما يصبو اليه، وسأعمل كامل جهدي، حتى يأخذ كل ذي حق حقه وسأعبىء الأمة من أجل صالحها ولصالحها حتى نلتحق بالركب السائر، وحتى نقضي على التخلف في جميع مظاهره، أعاهدك الله أن أكافح كما كافحت وأناضل كما ناضلت وأكون مع الشعب

لصالح الشعب ولأجل الشعب متخذاً من الشعب درعا حاميا للعرش وأن أجعل العرش في مقدمة الكفاح من أجل صالح الشعب حتى نحقق المجتمع الاسلامي السعيد الذي كنت تحلم به مجتمعا متقدما مترفها متدينا في ظل الدين ممتدا في إطار الشريعة الاسلاميّة، محافظا على القيم الحميدة سائرا في سبيل الاحراز على فضائل العلوم والمدنية مجتمعا يسعد فيه المواطنون، ذلك عهد بيني وبينك والله على ما أقول وكيل.

أبتاه :

في هذه الساعة المليئة بالخشوع، وقد كثرت الآهات وجرت الدموع وأمام هاته الخلائق المؤمنة، نتوجه إلى ربك الرحيم رافعين أكف الضراعة قائلين : اللهم يا من وسعت رحمته كل شيء ارحم عبدك أمير المؤمنين، اللهم اجعله في جوار المحبوبين من الصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم ارزقه نعمة الشهداء المقربين

اللهم استقبله في خلدك بأحسن ما استقبلت به عبادك المحبوبين : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، اللهم كما شرحت صدره ورفعت ذكره اجعل له الآخرة خيرا من الأولى، اللهم ارفع مقامه في المقامات ودرجته في الدرجات، اللهم انه ابن نبيك وسمى رسولك، فاجعل له بنسبه سببا، وباسمه ذمة ونسبا.

اللهم انه صديق قرءانك والمحافظ على صلواتك ومناجاتك فاجعل القرآن له نورا واجعل صلاته طريقا لرؤيتك ورضوانك اللهم ان ثقته بك كان لا يحصيها عد فاعطه على قدر كرمك وجودك.

اللهم اجعلنا من المهتدين بهديه، وثبتنا على صراطه وسنته، واجعلنا من الوافين بعهده، ولا تزغ قلوبنا عن وصاياه ونهجه.

اللهم اجعله قرير العين بأعمال أمته. اللهم وفقنا للأعمال الصالحة حتى ترضى عنا روحه، اللهم وفقنا حتى نحقق لهذه الأمة ما كان يريده لها، اللهم انه كان يريد لها الوحدة فوحد كلمتها، واجمع شملها وألف بين قلوبها، اللهم انه كان يريد لها العلم فعلم جهلها، اللهم إنه يريد الأخلاق الصالحة لها فهذب أخلاقها، اللهم انه كان يريدها أمة قرآنية مسلمة عربية فوفقنا لخدمة العروبة والدين.

اللهم أعط لوالدنا وزعيمنا وقائدنا أحسن ما أعطيت للذين أنعمت عليهم ؛ اللهم كما أنعمت عليه بالنسب الأصيل والاسم الجميل والخلق الجليل اجعله في مقعد صدق مع الذين أنعمت عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ؛ صدق الله العظيم ؛ وهو حسبي ونعم الوكيل ؛ انه نعم المولى ونعم النصير.

ألقي بالرباط

الخميس 20 شوال 1380 — 6 أبريل 1961